الفصل الثالث

مصادر الإلهام الفكري
لعز الدين القسام

هشام محمد عبد الرؤوف

هذه سيرة رجل، استُشهد فى بداية المعركة، وهو قائدها، احتفظ أخوه بجواربه بعد استشهاده، ولا تزال تنبعث منها رائحة زكية.

كان أبًا روحيًا للعمل العسكرى فى مواجهة المحتل الغربى، فقد حارب جميع صور الاحتلال فى العالم العربى فى عصره، (الفرنسى فى سوريا، والإيطالى فى ليبيا، والبريطانى والصهيونى فى فلسطين).

يُعد بداية مقاتَلة المحتل بصورة تنظيمية وعسكرية فى الأراضى الفلسطينية، وقت أن ساد انتهاج الحركة الوطنية الفلسطينية عملًا سياسيًا، مترجمًا فى كتاباتٍ، وإخراج بياناتٍ، واعتراضاتٍ شفهيةٍ، ومؤتمراتٍ، ومذكِراتٍ، فى مواجهة الاحتلال البريطانى والصهيونى.

فكان من الضرورى معرفة مصادر إلهامه، وتكوين أفكاره، وأساس مشروعه، والوسائل التى استخدمها ليخرج مشروعه إلى أرض الواقع، فيستمر حتى وقتنا الحاضر، ويكون هو مصدر عزة للعرب أجمع.

تعالج هذه الدراسة تأثر الشيخ عز الدين القسام، بكل من جمال الدين الأفغانى،

وعبد الرحمن الكواكبى، ومحمد عبده، ومصطفى كامل، على ما بين مصادر الإلهام هذه من تباينات وتعارضات.

محطات حياته

ولد عز الدين عام ١٨٨٢، فكان الابن الثانى لرجل الدين السورى، الشيخ عبد القادر القسام، المشتغل بالتصوف، وعلوم الشريعة، والمهتم بنشر العلم، وبثه ، وتربية المريدين، وهدايتهم إلى الله (عزّ وجلّ)، وكانت له مدرسة (كُتَّاب)، درَّس فيها أبناء القرية (الأطفال)، أصول القراءة، وحفظ القرآن، واشتغل لفترة مستنطقًا فى المحكمة الشرعية[١]. أما والدة الفتى عز الدين فهى حليمة قصَّاب (الزوجة الثانية)، سليلة آل نور الله الكرام، حَمَلة العِلم الدينى، فى بلاد الشام[٢].

هذه البيئة، الريفية، البسيطة، ساعدت ذلك الطفل على تشرب مفاهيم، وقيم عائلته الإسلامية، وأن ينشأ بميل خاص نحو الشريعة، والفقه الإسلامى، ويحمل من سمو الخُلق، ما يجعل سيرته محمودة عندَ الجميع، وكان لأستاذه فى الكُتَّاب - الشيخ محمود - رأى وإعجاب بنبوغ وتفوق عز الدين على أقرانه، وكان الأستاذ غالبًا ما يذكر مزايا تلميذه النجيب[٣].

هيأ تفوق عز الدين فى مدرسته الأولى، واهتمام أسرته بالتعليم الشرعى، فرصةً للسفر إلى الأزهر وطلب العلم هناك، وهو فى الرابعة عشرة من عمره، وتم تدبير أمر السفر بمساعدة أحد الأفندية ، فسافر عز الدين، وابن خالته ناجى أديب عام ١٨٩٦، وبرفقتهما أخوه فخر الدين[٤].

كانت مصر، آنذاك، مصب التيارات الفكرية المتعددة داخل الشرق الإسلامى، فعلى ساحتها نشر عبد الرحمن الكواكبي[*] كتابيه «طبائع الاستبداد» و«أم القرى»، وكان هناك

---

* عبد الرحمن بن أحمد الكواكبى، ولد عام ١٨٥٤ فى حلب، هاجر إلى مصر سنة ١٨٩٩، سرًّا، مخافة بطش السلطان العثمانى. نشر فصول كتابه «طبائع الاستبداد» فى صحيفة «المؤيد» دون توقيع، ثم نشر كتابيه «طبائع الاستبداد»، و«أم القرى» بعد تعديلات جوهرية باسم «الرحالة ك»، ويمثل «أم القرى» محاضر اجتماع جمعية تعليم الموحدين السرية، بمندوبين عن الدول التى بها مسلمين، وكان الاجتماع فى مكة، لمناقشة مشكلات الأمة، وكيفية علاجها.
طاف الكواكبى بالعديد من بلاد المشرق فى آسيا وأفريقيا والدول الإسلامية، مات فى ١٤/ ٦/ ١٩٠٢، بينما كان يعزم على القيام برحلة مماثلة إلى بلاد المغرب، وصادر رجال السلطان عبد الحميد أوراقه الخاصة.
وكتب حافظ إبراهيم على قبره:

هنا رجل الدين هنا مهبط التقى ... هنا خير مظلوم هنا خير كاتبِ
قفوا واقـرأوا أم القرى وسلِّموا ... عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

صراع فكرى محتدم بين مدرسة الإسلاميين «امتداد الأمة وأصالتها»، ممثلة فى تلاميذ الصوت الثائر جمال الدين الأفغاني(*)، كمحمد عبده(**)، ورشيد رضا، وبين مدرسة التغريب، من أمثالها فرح أنطون، ولطفى السيد.

كانت مصر خاضعة للاحتلال البريطانى، بعد فشل ثورة عرابى، عام ١٨٨٢م، التى قادها تلامذة الأفغانى، ومحمد عبده. نشأ فى مصر آنذاك تيار المقاومة للاحتلال البريطانى، ممثلًا بمصطفى كامل، أحد الأصوات الثورية فى تاريخ مصر، ومن المتأثرين بصرخات باعث النهضة الإسلامية الحديثة، جمال الدين الأفغانى.

فعَرف عز الدين فى مصر، الاستعمار الغربى البريطانى، وجهًا لوجه، ورأى فيها هجوم المفكرين المتغربين على الإسلام، فكرًا، وحضارةً، وتاريخًا. فعايش بنفسه الصراع الدائر بين هؤلاء، وبين المفكرين الإسلاميين، فعرف المشروع الحضارى الإسلامى، وارتبط فهمه للإسلام، بأنه دين علم وعمل. وفيها عرف القسام عن الحركة الصهيونية، وليدة الاستعمار الغربى، وربيبته، وسمع عن تطلعاتها وأطماعها بفلسطين.

حصل عز الدين على الشهادة الأهلية من الأزهر، بعد دراسة دامت حوالى سبع سنوات،عانى فيها من ضيق العيش، لانقطاع الأموال التى كانت ترسل إليه، وعاد إلى موطنه، عام ١٩٠٣م. ورفض وقتها بعزة رجل الأزهر المستنير، تنفيذ طلب والده بالذهاب إلى الأفندى ليسلما عليه، ثم قام عز الدين برحلةٍ إلى تركيا للاطلاع على طرق التدريس فى جوامعها، وعلى خطب الجمعة، ودروس ما بعد صلاتى العصر والمغرب(٥).

(*) محمد جمال الدين بن صعتير بن على بن مير رضى الدين محمد الحسينى، ولد ١٨٣٨م، فى أسعد أباد فى خطة كنر من أعمال كابل ببلاد الأفغان.

سافر فى العاشرة من عمره إلى إيران، ومنها إلى النجف، ثم عاد فى ١٨٥٤م، ثم سافر إلى الهند، ثم إلى مكة، وحتى عام ١٨٦٨م بدأ فى الترحال من جديد، ولكن لإيقاظ الأمة، ومحاربة الاستعمار الأوروبى، فسافر إلى الهند ثم إلى مصر، فالآستانة، فالحجاز، فالعراق، فإيران، فروسيا، فلندن، وباريس.

عاش فى مصر فى الفترة من ١٨٧١م حتى ١٨٧٩م، وكانت أخصب الفترات فى إنجازاته الفكرية، اجتمع هو وتلميذه محمد عبده فى المنفى، وأصدرا مجلة «العروة الوثقى»، كما كان رئيس «تنظيم العروة الوثقى» السرى.

(**) محمد عبده حسن خيرالله، ولد ١٨٤٩م، بقرية محلة نصر، مركز شبراخيت محافظة البحيرة مصر. تعلم القراءة، والكتابة، وحفظ القرآن، وتعلم بمعهد «الأحمدي» الأزهرى بطنطا ١٨٦٢م. عاد إلى بلدته ليشتغل بالفلاحة بعد زواجه، ولكن والده أصر على عودته لطلب العلم، فهرب إلى أخوال أبيه، وهناك لقيه الشيخ درويش خضر، فتأثر بهذا الشيخ، وغادر إلى طنطا ثم إلى القاهرة لطلب العلم.

تعرف إلى الأفغانى عام ١٨٧٠م ،وتتلمذ على يديه ولازم حلقاته، حتى أصبح أصدق أصدقائه، ونهج نهج الأفغانى، حتى عاد من المنفى.

كرس جهوده للعمل الفكرى دفاعًا عن الإسلام، ففسر القرآن، ونشر كتبًا، ورسائل. ركز على الميدان العلمى، والتربوى، فى الإصلاح. وكان يرى بعدم ضرورة الصدام مع الحكام والمستعمرين، لحين تربية المجتمع على المطالبة بحقوقه.

بدأ فى العمل بما تعلم، حين عاد، وعكف على التدريس فى زاوية والده، وفى جامع السلطان إبراهيم بن أدهم، وأخذ دور والده فى تدريس أطفال القرية، وتجاوَزَ الحدود التقليدية فى حفظ القرآن وتجويده إلى العلوم الأولية، والقراءة، والكتابة، وتولى خطابة الجمعة فى مسجد المنصورى. ومع أول راتب حصل عليه منع أمه وأخواته عن العمل فى منزل الأفندى مكتفيًا براتبه المتواضع[٦]. وبنشاطه فى الدعوة والتعليم، ذاع صيته، وانتشر اسمه. وكانت سيرته الشخصية مثال الفضيلة والكمال، لا ينهى عن خلق ويأتى مثله، ولا يدعو إلى طريق إلا ويكون أول سالك له، فكَثُر أتباعه، ومريدوه، وعَظُم شأنه. حتى إن الأفندية فى المنطقة حاولوا الضغط عليه، للتخفيف من نفوذه الشعبى، وتأثيره على الناس، فحاولوا استعداء السلطات العثمانية عليه، وإن لم ينجحوا فى ذلك.

فى ٣٠ / ٩ / ١٩١١ عندما حاصر الأسطول الإيطالى مدينة طرابلس، بهدف احتلال ليبيا، وبعد أن ردت حكومة الاتحاد والترقى - التى تقلدت الحكم فى إستانبول بانقلاب (١٩٠٨م) - بأنها لا تضمر أى عداء إزاء المشاريع الإيطالية فى طرابلس الغرب، وبرقة، كرد على الإنذار الإيطالى لها، الذى جاء فيه: «إن إيطاليا قررت إسباغ نِعم التقدم الأوروبى على طرابلس الغرب». عندها قاد الشيخ عز الدين القسام بنفسه، مظاهرة، طافت شوارع البلدة (جبلة)، وهى تهتف: «يا رحيم ويا رحمن..غرق أسطول الطليان». ولم يكتفِ بذلك، فدعا إلى الجهاد، وجمع أموالًا، وتبعه مائتان وخمسون متطوعًا، إلى الإسكندرونة، لكن السلطات العثمانية أرجعتهم، بعد أن رضخت للطليان. فبنى الشيخ، بما جمعه من مال، مدرسة، لمحو الأمية فى بلدته[٧].

مع إعلان جمال باشا المرسينى «الصغير»، قائد الجيش العثمانى الرابع، انسحاب الدولة العثمانية، جيشًا وحكومة من سوريا فى ٢٧ أيلول / سبتمبر ١٩١٨. ومع دخول جيوش الحلفاء دمشق فى مطلع تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٨، يتقدمها مقاتلون عرب، تابعون لقيادة الأمير فيصل بن الحسين، كان القسام قد وثَّق صِلاته بمشايخ الجبل، وكل الوطنيين فى الساحل السورى وفى الداخل، وقبل سقوط الساحل السورى بيد القوات الفرنسية، فى تشرين الأول / أكتوبر١٩١٨، باع الشيخ القسام ورفاقُه بيوتهم، وكل ما يملكون. ثم انتقلوا إلى قرية «الحفَّة»، مع زوجاتهم، وأولادهم، وفيها أخذ الشيخ يعطى الدروس التحريضية، تمهيدًا لمساندة الثورة، مستفيدًا من الموقع الحصين للقرية، وطابعها الفلاحى. وعندما

بدأت أعمال الثورة، فى أرجاء اللاذقية، كان القسام أول من لبى، فانضم إلى عصابة «عمر البيطار»، فى قرية شير القاق، من جبال صهيون، وانتظم فى عداد رجالها، وتقلد السلاح جنديًا، وكانت معه طائفة من مريديه، وأتباعه، الذين علَّمهم وهذَّبهم، وبقى الشيخ عز الدين فى دمشق، إلى أن سقطت الحكومة الفيصلية(*)[٨].

بعد انتصار الفرنسيين فى معركة ميسلون، فى ٢٤ / ٧ / ١٩٢٠، غادر عز الدين دمشق، هو ورفاقه، إلى بيروت، مفلتين من الحكم بالإعدام، ومنها إلى صيدا، وقصد فلسطين (حيفا)، ليبدأ فى تأسيس حركته الجهادية، ضد البريطانيين، واليهود، المحتلين للأراضى الفلسطينية.

عمل الشيخ عز الدين، إمامًا وخطيبًا لمسجد الاستقلال، ومدرِّسًا فى مدرسة البنات الإسلامية، ومدرسة البرج للبنين الإسلامية، وعضوًا فى جمعية الشبان المسلمين فرع حيفا ثم رئيسًا لها، ومأذونًا شرعيًا، لقرى شمال فلسطين.

أخذ شيخنا يبنى مشروعه الثورى خلال الفترة من ١٩٢٥م حتى ١٩٣٥م، والهادف إلى طرد الاحتلال البريطانى، من البلاد، فكان يقول «إن بريطانيا هى رأس الأفعى، واليهود الذنب ، اقطعوا رأس الأفعى فيموت الذنب». وأيضًا عمل على منع إقامة الدولة الصهيونية، على هذه الأراضى، فكان دائمًا يقول للمصلين فى مسجد الاستقلال : «إنها تحتل البلاد

(*) رفض السوريون الانتداب الفرنسى، ونشطت حكومة فيصل سياسيًا للحيلولة دون وقوعه. فاجتمع المؤتمر السورى ثانية فى ٦ / ٣ / ١٩٢٠ وبايع فيصل ملكًا على سوريا، وأعلن استقلالها، وأدخل فلسطين فى الوحدة السورية، كما أنه بحث مسألة استقلال العراق. فكان لهذا القرار رد فعل سيئ لدى بريطانيا وفرنسا، فعقدتا مؤتمرًا فى سان ريمو بتاريخ ٢٤/ ٤/ ١٩٢٠ اتفقتا فيه على تقسيم البلاد العربية فيما بينهما، وجعل الانتداب واقعا كما اتفقتا فى السابق.
وبعد إعلان قرارات المؤتمر، بدأ الشعب السورى بالاستعداد للتصدى للجيوش الفرنسية، التى تريد فرض الانتداب بالقوة، وكانت مساومات فيصل وتراجعه أمام الجنرال غورو الذى وجه إليه إنذارًا فى ٤١ تموز/ يوليو بضرورة قبول الانتداب، وبوقف إمداد العصابات الثورية فى المنطقة الغربية، فوافق فيصل على الإنذاروأخذ بمبدأ التفاهم مع فرنسا على أساس «خذ وطالب»، ولكن الشعب السورى رفض موافقة فيصل على الإنذار، وخرج منديًا بسقوط حكمه، فاضطر أمام الضغط الشعبى إلى الرضوخ لإرادة القتال، فأعلن الجهاد المقدس ضد الفرنسيين .وفى ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٢٠ التحم الجيشان السورى بقيادة وزير الحربية يوسف العظمة، والجيش الفرنسى فى معركة ميسلون، وكانت النتيجة احتلال فرنسا للمنطقة الشرقية، ودخولها دمشق، معلنة سقوط الحكومة العربية المستقلة. وأبلغ فيصل بضرورة مغادرته البلاد الساعة الخامسة من صباح ٢٨ تموز ١٩٢٠. أما الجنرال غورو قائد القوات الفرنسية فقد توجه نحو قبر صلاح الدين بصورة تهكم، وبيده سيفه ليقول أمام الضريح: «يا صلاح الدين، أنت قلت لنا إبان حروبك إنكم خرجتم من الشرق ولن تعودوا إليه... وها نحن قد عدنا فانهض لترانا هاهنا».

وأنتم فيها»، ويدعوهم إلى استقبال اليهود «كعدو لا كمهاجر أوكضيف»[٩]. كان يقول أيضًا، «لا تبيعوا اليهود ولو شبرًا واحدًا من الأرض، ومهما أثقلوا الثمن. إنّ من يبيعهم أو يقطعهم أرضًا يقطعه الله قطعةً من نار جهنَّم، فيها يتلظّى»[١٠]. ولقد كان الاتفاق (العقد أو البَيْعَة) بينه وبين تنظيمه السرى العسكرى، على «نُصرة الدين والوطن وقتل الإنجليز واليهود»[١١]. وكان يعمل على تحقيق الهدف من خلال مجالين: أولهما العمل العام للتثقيف والتهيئة، ونشر روح الثورة، (من خلال عمله كمدرس فى مدرسة الإناث الإسلامية، ثم فى مدرسة البرج للبنين الإسلامية، والمدرسة الليلية لمحو الأمية، ومن خلاله عمل خطيبًا، ومدرسًا، بجامع الاستقلال، ومن خلال جمعية الشبان المسلمين، التى أصبح رئيسًا لفرعها فى حيفا، ومن خلال عمله مأذونًا شرعيًّا، بمحكمة حيفا الشرعية). أما الآخر، فهوالعمل العسكرى، والبناء التنظيمى السرى، فأخذ القسام يبنى، ويُعِد تنظيمه بلجانه، وخلاياه، وشارك هذا التنظيم، فى هبَّة البراق صيف ١٩٢٩م، ثم بدأت الخلايا بمهاجمة العدو الصهيونى، بقتل أفراد منه، مثل (يوسف بورنستيان، شاموئيل جوترمان...)، ومهاجمة مستعمراته، مثل (كفار يجزكئيل، عتليت، نحلال...)، حتى استشهد شيخنا المجاهد فى معركة يَعْبدُ، التى كان يرى بأنها بدء الثورة، بقوله: «نحن خارجون لإعلان الثورة»[١٢].

مشروعه

لعز الدين القسام مشروع عقلانى، ثورى، إسلامى، أممى، تبنى نظرية «الجامعة الإسلامية». واعتمد على المبادرة الشخصية.

فهو صاحب مبادرة فى كل حياته، بدت لنا منذ استقلاله عن والده، وسفره للدراسة فى الأزهر. فبإيجابية لا يعتريها تواكل، وبإيمانٍ بأنه سيقف ليُحاسب، ويُسأل عن دوره أمام ربه فردًا، كان صاحب الخطوة الأولى دائمًا، معتمدًا على ملكاته. فكان خير نتاج لبيت ذى طابع إسلامى. بداية منذ كان طالبًا فى الأزهر، وانقطع المال، وضاق العيش، وبدأ بعمل الهريسة، وبيعها بجانب دراسته[١٣].

فلما كان واجبًا عليه ألا يلجأ إلى سلطة تأسِره بمنحه شيئًا من التعظيم، كما تعلَّم من كلمات عبد الرحمن الكواكبى: «إنه إذا نبغ من العلماء البعض، ونالوا حرمة بين العوام، لا يعدم المستبد وسيلة لاستخدامهم فى تأييد أمره، ومجاراة هواه فى مقابل أنه يضحك عليهم

بشيء من التعظيم، ويسد أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد»[١٤]، مخالفًا وصايا أستاذه محمد عبده، الذى كان يرى بمهاودة السلطات والمستعمِر، منعًا للتضييق، ومدعاة للحرية والانتشار. فرفض القسام مرافقة أبيه إلى الأفندى ليسلما عليه. وفورعمله فى مسجد المنصورى، ومع أول راتب حصل عليه، طلب من والده وقتها إجراء بعض التعديلات فى شكل البيت، ومنع أمه وأخواته -كما سبق وبيَّنا- من العمل فى بيت الأفندى، مكتفيًا بدخله الشهرى فى الإنفاق على أهله[١٥]. وبعد فشل ثورة سوريا أبى أن يتولى القضاء كمنحة من المحتل، وفضَّل أن يكون مفلتًا من حكم الإعدام إلى حيفا[١٦].

حين عاد من دراسته إلى سوريا، كان مستحضرًا قول عبد الرحمن الكواكبى: «فإذا وُجد فى الأمة الميتة من تدفعة شهامته للأخذ بيدها والنهوض بها....»[١٧] وكان يرى أنه يجب أن يكون هو هذا الشهم الذى يكون أول خطوة فى التخلص من الاستبداد. فلما علم بأحداث الأسطول الإيطالى فى ميناء طرابلس، بادر وقاد مظاهرته، وجمع المال، ودعا إلى الجهاد، وقاد كتيبة من مائتين وخمسين متطوعًا، إلى أرض المعركة، ولكن السلطات العثمانية أرجعته من الأسكندرونة[١٨].

لجأ إلى حيفا، مفلتًا من حكم الإعدام فى سوريا، وأثبت ذاته كمدرس، ثم جعل من مسجد الاستقلال أكثر المساجد شهرة فى تلك المنطقة، وساهم فى تأسيس «جمعية الشبان المسلمين»، حتى أصبح رئيس فرعها فى حيفا، وعمل على تعيينه مأذون حيفا الشرعى.

وعن ثوريته فالقسام رجل ثورى، انصب تفكيره على القيام بالثورة، وبالتحضير لها، من إعداد وتهيئة، فما نزل أرضًا بها استبداد حتى ثار عليه، كأنه عبد الرحمن الكواكبى، فى قوله: «إن الحقوق لا تُعطى منَّة من حاكم مستبد، أو مستعمر، وإنما تنال بالإعداد والتحضير لمواجهة أعداء الله، وأعداء الإنسان»[١٨]. ولكن بعد تهيئة الجمهور المساند لثورته، كما كان يفعل الأفغانى بقوله:«أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمق، وتقوم بأود العيال، فلماذا لا تشق قلب ظالمك؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة تعبك؟!»[١٩]، والأفغانى الذى قال أيضًا : «لهذا لا تتمكن [إنجلترا] بدسائسها فى قطر إلا عند سكون أهلها، فإن مقاومة الأهالى أشد بأضعاف مضاعفة من القوى العسكرية المجتمعة فى أماكن مخصوصة تحت قيادة رؤساء معينين، تنهزم بانهزامهم...»[٢٠].

كان عز الدين يهتم بتكوين أعضاء تنظيمه، الذين سيعاونونه فى ثورته، حتى إذا أُلهم

لحظتها، قاد هؤلاء الأعضاء للقيام بثورته، ليساندها ذلك الجمهور المهيأ . فلم يكن عز الدين إصلاحيًا، يثقّف الجمهور، ويربيه، ويصلح من أمره، ووعيه، حتى يطالب ذلك الجمهور بمصالحه التى عرفها، كما كان يرى أستاذ القسام محمد عبده.

لما شرع الطليان فى احتلال ليبيا (طرابلس)، قاد عز الدين الجمهور فى مظاهرة اعتراض على ذلك معارضًا موقف حكومته العثمانية، وقاد أتباعة (مائتين وخمسين متطوعًا) فى كتيبة للدفاع عن هذه البقعة. ومع بدء ظهور نوايا احتلال سوريا من قبل القوات الفرنسية (١٩١٨)، قاد القسام أتباعه للجبال، وانضموا إلى كتائب الثورة، للدفاع عن التراب الوطنى السورى. أما فى فلسطين، فأخذ القسام بأسباب قيادة ثورة، حتى إذا تهيأت الأجواء، قاد الأعمال العسكرية لقيامها، وحين التقط لحظة الثورة دعا كتيبته للخروج وإعلان الثورة، فكان عاملًا بقول جمال الدين الأفغانى: «لسنا نعنى بالخائن من يبيع بلاده بالنقد، ويسلمها للعدو، بثمن بخس، أو غير بخس، (كل ثمن تباع به البلاد فهو بخس)، بل خائن الوطن من يكون سببًا فى خطوة يخطوها العدو فى أرض الوطن، بل من يدع قدمًا لعدو تستقر على تراب الوطن، وهو قادر على زلزلتها»[٢١]،

رأى القسام أن إسلامية مشروعه - الذى يحمل مفهوم «الجامعة الإسلامية» - هو أساس النجاح؛ فتربيته، ونشأته، ومجال تعليمه، هى العوامل الأساسية فى هذا الاعتقاد، فنجده يعلّم الأطفال بالمساجد القراءة، وتحفيظ القرآن، بل كان يزيد بعض المواد الأساسية الإسلامية، وكان يعلّم الناس تعاليم الإسلام، فى دروس وخطب المساجد، ولطالما استخدم الأسلوب الإسلامى فى حث الناس على الثورة، تحت مسمى «الجهاد». وفى ذلك يقول القسامى إبراهيم الخليل(أبو إبراهيم الصغير)، مشيرًا إلى جوهر دعوة عز الدين القسام :«إن القائد الشهيد كان يدعو إلى الجهاد، على أساس دينى، والجهاد فى سبيل الله، واستخلاص الوطن، ودفع الظلم عن المواطنين»[٢٢]. فكان القسام بذلك تلميذًا مقلدًا لأستاذه محمد عبده الذى قال :«أى إصلاح للشرق والشرقيين لا بد أن يستند إلى الدين، حتى يكون سهل القبول، شديد الرسوخ، عميق الجذور فى نفوس الناس»[٢٣]، وعبده الذى كان محررًا تحت رئاسة جمال الدين الأفغانى لمجلة «العروة الوثقى»، التى كُتب فيها عن العلاج لأوضاع الأمة : «فعلاجها الناجح إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه، على ما كان فى بدايته وإرشاد العامة بمواعظه الوافية، بتطهير القلوب، وتهذيب الأخلاق، وإيقاذ نيران الغيرة...»[٢٤].

كما كان شيخنا حريصًا على هداية العصاة، ويرى بأنهم أولى من غيرهم، وكان يعتقد بأن إصلاح المستهترين أولى من إصلاح غيرهم، ويمكن للأمة أن تستفيد منهم، بعد الإصلاح، فقال فى الحرامية: «دعهم يعملوا، لأن فى عملهم رجولة، سنحوِّلها، فى يوم من الأيام، إلى جهاد»[٢٥]! فكان يذهب إلى العربيد، والزانى، والمنحل، ويخاطبهم بأسلوب رقيق، لينقلهم من معسكر الضلال إلى معسكرالثورة، فنجد أربعة من أعضاء تنظيمه ممن كانت سوابقه الأخلاقية مُشينة - ثلاثة منهم تابوا على يد الشيخ عز الدين القسام ـ فأحمد الطيب أبو منصور أحدهم، وكذلك عطية أحمد المصرى [٢٦]، والمجاهد حسن البابر، الذى أفاد، عندما وقع فى أيدى البوليس، إثر معركة يَعْبُد، فقال: «أنا من قرية بلقيس، وكنت أسرق، وأرتكب المحرمات، فجاءنى المرحوم عز الدين القسام، وأخذ يهدينى، ويعلِّمنى الصلاة، وينهانى عن مخالفة الشرع الشريف، وأوامرالله تعالى...»[٢٧].

قام مشروعه الإسلامى على فكرة «الجامعة الإسلامية»، التى لا تتعارض مع الوطنية، أو القومية، فلم تقتصر خطب القسام على التحذير من الخطر البريطانى، والصهيونى، فى فلسطين، بل لطالما تطرق إلى أطماع المستعمرين الغربيين، فى باقى أجزاء الوطن الإسلامى، فالانتداب الفرنسى فى سوريا، ولبنان، والبريطانى فى العراق، وفلسطين، والأردن، والنفوذ البريطانى القوى فى مصر، والسودان[٢٨]. وكان شخصيًّا يغرس فى قلوب سامعيه حب الوطن[٢٩]؛ متأثرًا فى ذلك بأستاذه جمال الدين الأفغانى، الذى لم ترتبط ثوريته بوطن من الأوطان التى تنقل بها، بل كان يدعو إلى مصالح شعوب كل هذه البلاد، كأنها أهل وطنه، وعشيرته، ومع ذلك كان يجعل من الوطنية دائرة تسبق دائرة العقيدة الروحية[٣٠]، والأفغانى هو من قال: «لا جامعة لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم»[٣١]! ومحمد عبده، الذى كان من مبادئ دعوته: «إن ما يمثله الإسلام، كرابطة اعتقادية وأدبية وروحية، تجمع كل المسلمين، بل والجنسية لجميع من يتدين به، لا تمنع تأسيس الولايات السياسية على أسس قومية ووطنية، فى إطار هذا المحيط الإسلامى الكبير»[٣٢].

كان القسام عقلانيًّا مثل أستاذة، محمد عبده، فكان عز الدين يتعامل مع فصائل مجتمعه، سواء كانوا حزبًا أو فردًا، رجلًا أو امرأة، مسلمًا أو غير مسلم. وبرز ذلك فى موقفة من المرأة، التى كان لها أنشطة موازية للجان تنظيمه السرى، حتى إن هناك خمسة عشر راويًا وراوية أكدوا وجود تنظيم نسائى للقسام «رفيقات القسام»[٣٣]. معتبرًا بأستاذه محمد عبده، الذى كان يحارب تهميش المرأة، وهى أساس بناء الأسر المسلمة، والذى (عبده) ساهم فى إخراج

كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين، بل قال البعض بأن عبده هو الذى ألفه[٣٤]، فكان عز الدين يوظف المرأة فى التحريض، متأثرًا بالكواكبى، الذى رأى أن المرأه قادرة على أن تسوق الرجل، وتجعله يظن أنه هو الذى يسوقها [٣٥]! وكان عز الدين يوظفها فى الإعداد للثورة، بغرض إصلاحها (بشغلها عن مساوئ سلوكيات من لا يشغلهم شيء)، وتفهمها طبيعة المعركة، ودور الرجال من حولها، وكأنه معتقد بما كتبه عبد الرحمن الكواكبى «بأن تركها جاهلة يسبب انحلالها، فانحلال زوجها، وأبنائها»[٣٦]! ولذا كان للمرأة فى تنظيم القسام دور فى (التموين –التحريض والدعاية – نقل الأخباروالرسائل – إخفاء الثواروتهريبهم – تمويه ومراقبة الطرق – ضرب الحجارة – تقديم الإسعافات الأولية – تأسيس الاتحادات والجمعيات – المشاركة فى المؤتمرات السياسية – حمل السلاح).

وسائل تنفيذ مشروعه

كان عز الدين القسام يعمل على تنفيذ مشروعه على مرحلتين، يبدأ بمرحلة تهيئة الرأى العام لوجوب الثورة، وبناء التنظيم، ثم مرحلة العمل العسكرى، وتعبئة الجمهور، وتوظيفه لتنفيذ الثورة. واتخاذ ما كان متاحًا من وسائل آنذاك، لتحقيق هدفه.

تهيئة وتعبئة الجمهور وبث روح الثورة

عمل شيخنا على تثقيف الجماهير، بالثقافة الإسلامية اللازمة، ليحيا هذا الجمهور بها، من (فقه، أخلاق ...). روى المجاهد القسامى أبو إبراهيم الكبير أنه «كان للشيخ القسام حلقات درس، يعلِّم فيها المسائل الدينية»[٣٧]! فهذا الأسلوب الذى ورثه عن والده، وشرع فى خلافته فى سوريا. حتى إنه خاض معركة صحفية، عام ١٩٢٥م، حول نقطة فرعية فى الدين(ارتفاع الأصوات فى الجنائز)، ولكنها تتعلق بربط حياة هذا الجمهوربتعاليم الإسلام، أسفر عنها خروج كتاب «النقد والبيان فى أوهام حزيران» للقسام وصهره الشيخ كامل القصَّاب.

كان دستوره فى تهيئة الجمهور، ما كتب فى مجلة «العروة الوثقى»، بيدى أستاذيه، الأفغانى، وعبده، «فعلاجها [الأمة] الناجح إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه، على ما كان فى بدايته، وإرشاد العامة بمواعظه الوافية، بتطهير القلوب، وتهذيب الأخلاق، وإيقاد نيران الغيرة...»[٣٨].

منذ وصول شيخنا حيفا ١٩٢١ وحتى ١٩٢٨، كان يوظف كل منبر يعتليه، وكل حوار يشارك فيه، وكل مكان ينزل فيه، ليعرِّف الجمهور بدينهم، وبوجوب الجهاد، وبحقيقة الخطر البريطانى والصهيونى. فكان ينظر شيخنا إلى الجمهور نظرة الكواكبى، الذى قال: «هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا، وإذا خافوا استسلموا، كما أنهم هم الذين متى علموا قالوا، ومتى قالوا فعلوا»[٣٩]! ولا ينسى القسام كلمات الأفغاني: «ولن تنبعث شرارة الإصلاح، فى وسط الظلام الحالك، إلا إذا تعلم الشعب، وعرف حقوقه، ودافع عنها، ومتى عرف الشعب هذه الحقوق، وجد نفسه مضطرًا إلى المطالبة بها، والمحافظة عليها إذا نالها»[٤٠].

فأول ما نزل الشيخ المجاهد حيفا، سكن فى أحراشها، حيث يتجمع الفقراء الفلاحون، النازحون، وأنشأ مدرسة ليلية، وأبدى اهتمامًا بالغًا بتحسين أحوال معيشة أولئك المعدمين، وأخذ يواجه الأميه المتفشية هناك، من خلال الدروس الليلية[٤١]. تمامًا كما انتهج مصطفى كامل - وتياره، «الحزب الوطني» فى مصر- إقامة مدارس، كى تقدم نموذج الوطنى المصرى المثقف، الذى تجعل منه الثقافة صاحب موقف ثورى فى مناهضة الاحتلال[٤٢]. وهذا ما فعله القسام فى الماضى فى سوريا، عندما عاد هو وأتباعه، بما جمعوا من تبرعات لمساعدة إخوانهم فى ليبيا.

لما درَّس القسام بمدرسة الإناث الإسلامية، ومدرسة البرج للبنين الإسلامية، ربط النشاط المدرسى بسيرة الأبطال المسلمين، أمثال صلاح الدين الأيوبى. يقول إبراهيم السهلى - (أحد تلامذة مدرسة البرج) إن الأستاذ عز الدين القسام، «فى نهاية كل سنة يمثل للأطفال رواية، كقصة صلاح الدين الأيوبي»[٤٣].

فى المساجد، كان يُعلِّم الجمهور دينهم، وينشر روح الجهاد، ووجوب الثورة على المستعمر، فكان يذكِّر فى خطبه بالحديث الشريف: «إذا ديس شبر من أرض المسلمين، فعلى المرأة أن تخرج بغير إذن زوجها، وعلى الرجل أن يخرج بغير إذن أبيه»[٤٤].

كان مرجعه فى ضرورة تهيئة عموم مجتمعه، وتوعيتهم، إلى كل من: عبد الرحمن الكواكبى، الذى كتب فى كتابه «أم القرى» أن من أسباب الفتور الموجود هو غرارة المسلمين أى «عدم معرفتهم كيف يحصل انتظام المعيشة، لأنه ليس فيهم من يرشدهم من ذلك»[٤٥]، فذكر الكواكبى فى القضية ٤٨ قوة الجمعية (جمعية تعليم الموحدين)، «سلاحها العلم والتعلم، وجيشها الأحداث والضعفاء»[٤٦]. كذا الأفغانى الذى قال «إن مقاومة الأهالى أشد

بأضعاف مضاعفة من القوى العسكرية المجتمعة فى أماكن مخصوصة تحت قيادة رؤساء معينين».

بناء التنظيم

بعد أن ذاع صيت الشيخ فى حيفا، والبلاد المجاورة، وأصبح مصدر ثقة، ومرجعية، فى شمال فلسطين. ورصد الواقع، ودرس أوضاع الجمهور، بدأ فى تنظيم طلائع حركته، بصورة سرية، فى ١٩٢٥[٤٧] ،متأثرًا بخبرته التنظيمية، والعسكرية، فى ثورة جبل صهيون. فالسرية لأخذ الحذر من أبناء الثورة نفسها، كى لا تتكرر فعلة صبحى بركات فى سوريا، الذى ألقى السلاح أمام الجنرال الفرنسى، غورو فى بيروت، بعد أن كان قائد إحدى عصابات الثورة فى سوريا، إلا أنه عاد إلى حلب، داعيًا إلى سياسة الوفاق، والتفاهم، مع الفرنسيين المحتلين!

كان لأعضاء تنظيم القسام أسماء حركية، ولا تعلم خلية، شيئًا عن سواها[٤٨]، فهذا المجاهد أبو إبراهيم الكبير، الذى قال فى حوار له: «كان القسام يضمه إلى خلية تنظيمية دون أن يعرف بقية أعضاء وخلايا التنظيم الأخرى، بل ربما اعتقد العضو أن هذه الخلية هى الأولى التى بدأ بها القسام العمل التنظيمي». وبرز تأثر القسام بأستاذه جمال الدين الأفغانى، الذى كان له السبق فى إنشاء تنظيم سرى عام ١٨٨٣ جمعية العروة الوثقى[٤٩] - الذى كان محمد عبده نائبه بعد ذلك، ليعد بتكوين هذا التنظيم من أوائل من أنشؤوا تنظيمًا سريًا على مستوى العالم، فقد سبق تنظيمه، «الجمعية الفابية»[*]، التى تكونت عام ١٨٨٤، و«حزب العمال المستقل»، الذى تكون فى عام ١٨٩٣، وظهرت محاكاة عز الدين القسام لهذا التنظيم، فى شكله الهرمى، ووجود مستويات إدارية، وفى سريته، ، وتقسيمه إلى لجان، مع الاهتمام باللجنة المالية، وفى أسلوبه التدريجى التوثيقى، فى تجنيد الأعضاء الجدد، بل فى أساليب الدعوة إلى أهداف وأفكار التنظيم.

أخذت مرحلة إعداد الكوادر، بالتثقيف، وإكساب الخبرات، والتوظيف، فى جلب العناصر الجديدة، وتوصيلها إلى القيادة (الشيخ) للتوثيق، وإقرار تجنيدها، وحتى عام ١٩٢٨. كان تنظيم عز الدين القسام يتكون من خلايا، كل خلية مكوَّنة من خمسة أفراد،

(*) سُمِّيَت نسبة إلى فابيوس كونكتاتورد، وهى جمعية إنجليزية، أنشئت فى عام ١٨٨٤، وسعى أعضاؤها إلى نشر مبادئ الاشتراكية بالوسائل السلمية. أهم ثلاثة من كبار الفابيين هم : جورج برنارد شو ، سيدنى ويب ، وغراهام والاس.

ووصلوا إلى تسعة، يرأسهم نقيب، فى القيادة والتوجيه، والذى يلزم أعضاءه باقتناء سلاح، وبدفع اشتراك شهرى، لا يقل عن عشرة قروش[٥٠]. وبعد تكون هذا التنظيم، إداريًا، من القيادة المسؤولة، وقادة القواعد، والفروع، ثم القاعدة[٥١]. فحاكى تنظيم، «جمعية العروة الوثقى»، المكون من خلايا من ثلاثة أفراد، تنعقد اجتماعاتها بصورة دورية، ولها برنامج إعدادى تربوى تدريبي[٥٢]، وعلى كل فرد أن يدفع، عقب كل اجتماع، (بصورة دورية ثابتة) ما يستطيع من مال، ويحفظ مع أمين صندوق منتخب، وعلى أمين الصندوق أن يجرى عمليات ضبط الحساب[٥٣]. وكما فى تجنيد الأعضاء الجدد فى «جمعية العروة الوثقى»، نجد «عندما يقترح عضو من الأعضاء فى التنظيم، ترشيح اسم جديد، فإن القبول، أو الرفض، ومنح الثقة أو حجبها، عن المرشح الجديد، إنما هو حق المستوى التنظيمى، الذى يقود العمل»[٥٤]. و«تتم دعوة المرشح الجديد، بطرق غير مباشرة، لتتكشف خلالها استعداداته، وآراؤه، ثم تسير الأمور بتدرج، حتى المكاشفة»[٥٥]. فنجد الشيخ عز الدين (القيادة)، محور التوثيق، وإقرار تجنيد العضو الجديد، كان ينتقى أفراد تنظيمه، من خلال ملاحظته لتفاعل الجماهير فى أعماله العامة (المدارس - الخطب والدروس المسجدية)، ومن خلال علاقاته بهؤلاء الأفراد. فيُروى أنه «عندما كان يخطب على منبر جامع الاستقلال، كان يراقب المصلين، ويدعو من يتوسم فيهم الخير والاستعداد، لزيارته فى المنزل، وتتكرر الزيارات، حتى يقنعه القسام بالعمل لإنقاذ فلسطين، مما يهددها من خطر»[٥٦]. أو قيام أفراد قدامى فى التنظيم، بتجنيد أعضاء جدد، ولكن بعد متابعة الشيخ عز الدين (القيادة)، شخصيًا، للجدد.

حتى واجبات الأعضاء فى تنظيم القسام، تضمنت مهام أعضاء «جمعية العروة الوثقى» نفسها، وزاد عليها، متطلبات العمل العسكرى، فكانت واجبات الأعضاء فى الجمعية، واجبات داخلية، تتعلق بتربية الأعضاء، وتطوير إمكاناتهم، وما يتعلق بنشر مبادئ الحرية، والوطنية بين الجماهير[٥٧]، فيما انحصرت مهام أعضاء تنظيم القسام الداخلية فى تربية الكوادر (النقيب). ومهام أخرى خاصة بالأعضاء- من خلال اللجان، فكان الشيخ يقسم تنظيمه من الناحية التنفيذية إلى لجان، مثل لجنة شراء السلاح، ولجنة التدريب العسكرى له ولأعضاء التنظيم بإشراف الشيخ جلادات، وهو ضابط سابق فى الجيش العثمانى[٥٨]، وأخرى لنشر الفكرة، والتعامل مع الغير، مثل لجنة الدعاية (فكان يقوم رجال الدين من أعضاء التنظيم بالدعاية ونشر روح الثورة)، ولجنة الاتصال السياسى، بالأحزاب، والجمعيات الأخرى، وبها محمود المخزومى، للتنسيق، فهو الذى اتصل برأس الحركة الوطنية، آنذاك، الحاج

أمين الحسينى، شخصيًا، أومن خلال هذه اللجنة، وهو الذى اتصل بالقنصلين الإيطالى، والتركى، فى القدس لشراء أسلحة[٥٩]، واهتم القسام بتنظيم الجانب المالى، فأنشأ لجنة لجمع المال (من خلال الاشتراكات، والتبرعات، ممن يثق الشيخ بهم، ومن الإنتاج الزراعى (الأرض) تبرع بها رجل للتنظيم فكان أعضاء التنظيم يزرعونها، وينفقون من ريعها على التنظيم[٦٠]، بالإضافة إلى لجنة الاستخبارات على العدو البريطانى والصهيونى، فتم بناء تنظيمم سرى من العمال، فى المصالح الحكومية، ودوائر البوليس، والعمال الذين يعملون مع اليهود، لمعرفة نشاط اليهود والبريطانيين[٦١].

العمل العسكرى وتعبئة وتفعيل الجماهير والتجهيز للثورة

كما أقام جمال الدين الأفغانى «الحزب الوطنى الحر»، عام ١٩٧٨[٢٦]، لنشر أفكار الحرية، والمطالب الوطنية، بين الجمهور، من خلال أعمال عامة، يتم من خلالها الاتصال المباشر بالجمهور، نسج القسام على منوال الأفغانى، فمنذ عام ١٩٢٩، وبعد أربع سنوات من بناء التنظيم، بدأ شيخنا فى تعبئة الجماهير، لتفجير الثورة، مستهدفًا تغطية أكبر مساحة جغرافية فى فلسطين، ونجد ذلك فى خطبه ودروسه، التى بدأت تأخذ منحى التحفيز للقيام بثورة، والتوبيخ، للسكوت على أوضاع فلسطين.

فنجد الشيخ يخطب، فى الشباب، تاليًا الآية الكريمة. «**يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتًا عند اللّه أن تقولوا ما لا تفعلون، إن اللّه يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص**»[٦٣] وكان يخطب، ذات مرة، فى آخر ١٩٣٤، فى الجمهور، قائلًا «هل أنتم مؤمنون؟ ثم أجاب: لا أعتقد، وسكت قليلًا»! فصارت ضجة، وهمهمة، فاسترسل وقال «لأنه لو كنتم مؤمنين، لكانت عندكم عزةَ المؤمن، فإذا خرجتم من هذا المسجد، وناداكم جندى بريطانى، فستهرولون نحوه »[٦٤]! وكان كلما فتح الحديث فى دروسه عن شخصية مجاهدة، من الصحابة توجه إلى اللّه بالدعاء، «ربنا ارزقنا الشهادة فى سبيلك »[٦٥]! ولم يقف عند التذكير، بل «كان يطالب الجمهور باقتناء سلاح».[٦٦]ولما وقف أحد المصلين، وسأل: «بماذا نقاوم العدو ونحن لا نملك شيئًا، أجاب الشيخ «بقتلهم وأخذ السلاح منهم»[٦٧]! وفى إحدى خطبه- كما نشرت صحيفة «الخليج» الإماراتية حوار حفيده أحمد- كان يخبئ سلاحًا تحت ثيابه، فرفعه، وقال. «من كان منكم يؤمن باللّه واليوم الآخر، فليقتن مثل هذا»، فأُخذ مباشرة إلى السجن، وتظاهر الناس لإخراجه، وأضربوا إضرابًا عامًّا[٦٨]. وكان يقول

للناس فى خطبه: «هل أنتم مؤمنون؟» ويجيب عن نفسه «لا»، ثم يقول للناس «إن كنتم مؤمنين فلا يقعدنّ أحد منكم بلا سلاح وجهاد». و كان يركزّ على أن الإسراف فى زخرفة المساجد حرام، وأن علينا أن نشترى سلاحًا، بدل أن نشترى الثريات الفاخرة حتى إنه فى آخر خطبه وقف، للمرة الأخيرة، خطيبًا فى جامع الاستقلال بحيفا، وخطب فى جمع من المصلين، وفسر لهم الآية الكريمة: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة ١٣ - ١٤] «وكان فى صوته تهدج وحماسة، وفى نبراته رنين ألم ممض، وفى عينيه بريق من بأس وقوة» وأردف أيها الناس «لقد علمتكم أمور دينكم، حتى صار كل واحد منكم عالمًا بها، وعلّمتكم أمور وطنكم، حتى وجب عليكم الجهاد، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، فإلى الجهاد أيها المسلمون، إلى الجهاد أيها المسلمون»[٦٩].

حتى الحفلات العامة، حوَّلها إلى مدرسة فى الجهاد، فنظَّم الاحتفال بالمولد النبوى ذات مرة، وكان يشعر الناس بالخطر، ويشعل حماستهم، بقولة طارق بن زياد «البحر أمامكم والعدو وراءكم»، التى كانت شعار الحفل، فأحضر العامل البحرى (سرور برهم)، وجعله يحضر شختورته (مركبة الصغيرة)، فتركب لها عجلات بالزينة، وتصدر الموكب «طارق بن زياد»، وهو يطوف شوارع المدينة، من الصباح حتى العصر، وتمر السفينة أمام دائرة البوليس، وخلفها الآلاف، وعلى رأسهم عمال البحر، وعمال السكك الحديدية، وعمال البناء والحجارة[٧٠].

لطالما خرج شيخنا إلى القرى، لنشر فكرته، حتى أصبحت له شعبية معتبرة، فى قرى حيفا، وجنين، وقرى شفا عمرو، وصفورية، فى الجليل الأعنى، وكان يتردد على سيلة الظهر، وسيلة الحارثية، ونورس، وطوباس، وبرقين، ويعبد، وبرين، والرينة، ومنطقة العهبرية، حيث يوجد عرب المنسى، وأبى زريق، والسعديين، وزار عرب الرمل، واللواء الشمالى، ومرج ابن عامر، وجنين[٧١]. ولم يكتف بذلك، بل طلب لعدة مرات! من الحاج أمين الحسينى، أن يعيّنه واعظًا عامًا، لتتاح له حرية التحرك فى مدن، وقرى فلسطين، وينشر فكرته، ولكن الحاج أمين كان يرفض ذلك[٧٢]. وساهم القسام فى إنشاء «جمعية الشبان المسلمين»، فى ١٩٢٧، التى تولى رئاستها بعد عام واحد، غدا ممثلًا عنها فى الاجتماعات الجماهيرية،

منذ عام ١٩٣٣، فكان مواظبًا على إعطاء محاضرات دينية مساء الجمعة، ويسرح كل أسبوع بفئة من الأعضاء إلى القرى، فيَزجر، ويُرشد، ويَعود[٧٣]. وسهلت له رئاسته للشبان المسلمين حرية الحركة، بين فروعها، وباقى القرى، وهى بمثابة تغطية للأعمال السرية، والإعداد للثورة (للتدريبات العسكرية، تحت أعمال النشاط الرياضى للجمعية)[٧٤]. وسعى القسام، أيضًا حتى أصبح مأذونًا شرعيًّا، فى عام ١٩٣٠ م، بجوار ١٤ شيخًا، وكان هدفه حرية التجول والتداخل مع الجمهور فى أكبر قدر من المناسبات، حتى إنه حين أفتى أحد مشايخ حيفا بمنع الأعراس، بذريعة أن الطبل يجمع الشياطين، قال القسام « اعملو ا عرسًا، واعزمونى»[٧٧]!

فكما أقر تنظيم «جمعية العروة الوثقى» بتوظيف المناصرين من الدوائر حول التنظيم، عملًا بالمادة الثالثة عشرة من لائحة التنظيم[٧٨]، نجد عز الدين القسام، يقوم بتوظيف أفراد مجتمعه، بكل طوائفه، كل حسب طاقته، وإمكاناته، فاستعان بالمحامى المسيحى حنا عصفور، الذى يقول: «أنا من تلاميذ القسام، أنا حضرت دروسًا لمعلمنا الشيخ القسام»[٧٧]! وبالمطران، المتبرع، غويغوريوس حجَّار[٧٨]، وبالمرأة التى تقف موقف المساعد، بل المشارك للرجل، فى الثورة، وإعدادها، فكان لها دور تموينى، وبلغ عدد الرواة الذين تحدثوا عن هذا ا الدور ٥٨ راويًا، فحدثتنا رسمية البرغوثى (أم معبد) عن «مشاركتها فى إمداد الثوار بالطعام». وكان لها دور تحريضى، شمل تحفيز الجماهير، وتوعيتهم، والمشاركة فى المظاهرات، وتحدث فى ذلك ٣٥ راويًا، فقالت وديعة خرطبيل «عملنا لجان نطلع على القرى، ونروح نعطيهم توعية، منشان القضية»! والدور الطبى، من تدريب، وتقديم إسعافات أولية، فأولفا الأسود «كانت تعطى دورات للنساء»، وروت خزنة الخطيب أنها كانُت تقدم الإسعافات، حتى قدوم الطبيب، أما الدور العسكرى، والذى شمل حمل السلاح، والمشاركة فى المعارك، أو التدريب عليه، أو القيام بالاستخبَارات العسكرية، أو نقل المعلومات، والأوامر فإن يسرى البربرى «كانت تمول المقاومين بالجبال، والكهوف بالمؤن، والإمدادات العسكرية »[٧٩].

وبعد، فلعل فيما سبق ما يوضح مصادر الإلهام الفكرى للشيخ الشهيد عز الدين القسام، ومشروعه الذى استمده من مشايخه كموروث من موروثات مشروع الحضارة الإسلامية، الذى يدعو للإيجابية فى مواجهة المحتل، الذى وضع به بذرة الجهاد فى فلسطين، والتى كلما استُخْدِم طريق غير طريق القسام فشل، ورجع عليها بالخسران المبين.

***

هوامش الفصل الثالث

(١) على حسين خلف، **تجربة عز الدين القسام السورية١٨٨٢ - ١٩٢١**، شؤون فلسطينية، (بيروت)، عدد ١٢٤، آذار/ مارس ١٩٨٢، ص١٨.

(٢) سميح حمودة، **الوعى والثورة: دراسة فى حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام**، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ص٢١.

(٣) **المصدر نفسه**، ص٢.

(٤) خلف، **مصدر سبق ذكره**، ص١٩.

(٥) **المصدر نفسه**، ص١٩، ٢٢.

(٦) حمودة، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٤.

(٧) بيان نويهض الحوت، **الشيخ عز الدين القسام فى تاريخ فلسطين**، بيروت، دار الاستقلال،١٩٨٧، ط١، ص ٢٨.

(٨) حمودة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٦، ٢٨.

(٩) حسنى أدهم جرار، **سلسلة المعارك التاريخية على أرض الشام، شعب فلسطين أمام التآمر الفلسطينى والكيد الصهيونى ١٩٢٠-١٩٣٩**، ط٢، عمان، دار الفرقان، ١٩٩٢، ص ٩٣.

(١٠) http://www.aw4h.net/showthread.php?t=11204

(١١) أكرم زعيتر، **وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٣٩**، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط٢، ١٩٨٤، ص٣٩٨.

(١٢) كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطانى ١٩٢٢-١٩٣٩**، ط٢، طرابلس ـ ليبيا، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٢، ص٥٩١.

(١٣) حمودة، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٣.

(١٤) محمد عمارة، **عبد الرحمن الكواكبى شهيد الحرية ومجدد الإسلام**، ط٢، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٨، ص ١٧٩.

(١٥) حمودة، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٣.

(١٦) **المصدر نفسه**، ص٣٢.

(١٧) عبد الرحمن الكواكبى، **طبائع الاستبداد ومصارع العباد**، ط٣، بيروت، دار النفائس، ص١٨٠.

(١٨) **المصدر نفسه**، ص ١٨.

(١٩) جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، **العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى**، ط٣، القاهرة، دار العرب، ١٩٩٣،ص٢٨.

(٢٠) جمال الدين الأفغانى، **العروة الوثقى**، ط١، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٢، ص ٤١٥.

(٢١) محمد عمارة، **جمال الدين الأفغانى موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام**، ط٢، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٨، ص ١٠٨.

(٢٢) حمودة، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٢.

(٢٣) محمد عبده، **الأعمال الكاملة** ج١، ط١، بيروت، دار الشروق، ١٩٩٣، ص١٦٠.

(٢٤) الأفغانى ومحمد عبده، العروة ...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢١.

(٢٥) حمودة، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٢.

(٢٦) **المصدر نفسه**، ص٥٣، ٥٤.

(٢٧) جرار، **مصدرسبق ذكره**، ص٩٩.

(٢٨) حمودة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٥.

(٢٩) **المصدر نفسه**، ص٤٤.

(٣٠) عمارة، جمال الدين الأفغانى موقظ الشرق...، **مصدر سبق ذكره**، ص١٦٨.

(٣١) **المصدر نفسه**، ص١٧٢.

(٣٢) عبده، **مصدر سبق ذكره**، ص١٢٠.

(٣٣) د.فيحاء عبد الهادى (محررة)، **دور المرأة فى الثلاثينيات**، ط١، رام الله، مركز المرأة الفلسطينية للأبحاث والتوثيق، دت ، ص٢٢.

(٣٤) عبده، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٥٧.

(٣٥) عمارة، عبد الرحمن الكواكبى...، **مصدر سبق ذكره**، ص١٨٤، ١٨٥.

(٣٦) السيد الفراتى، **أم القرى**، ط١، القاهرة، المطبعة المصرية بالأزهر، ١٩٣١، ص ١٥٧.

(٣٧) حمودة، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٥.

(٣٨) الأفغانى وعبده، العروة الوثقى ...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢١.

(٣٩) عمارة، عبد الرحمن الكواكبى...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٠.

(٤٠) الأفغانى وعبده، **العروة الوثقى** ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠.

(٤١) حمودة، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٨.

(٤٢) عبده، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٤.

(٤٣) حمودة، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٣.

(٤٤) **المصدر نفسه**، ص٤٦.

(٤٥) الفراتى، **مصدر سبق ذكره**، ص١٥٣.

(٤٦) **المصدر نفسه**، ص١٨٦.

(٤٧) صبحى ياسين، **الثورة العربية الكبرى فى فلسطين**، القاهرة، دار الكتاب العربى، ١٩٦٧، ط١، ص٣٣.

(٤٨) جرار، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٢.

(٤٩) محمد عمارة، جمال الدين الأفغانى موقظ ...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٢٧،٢٢٨.

(٥٠) جرار، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠١.

(٥١) **المصدر نفسه**، ص١٠٥.

(٥٢) محمد عمارة، جمال الدين الأفغانى موقظ ...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٦١.

(٥٣) **المصدر نفسه**، ص٢٦٠.

(٥٤) المصدر نفسه، ص٢٥٥.

(٥٥) محمد عبده، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٨.

(٥٦) خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٨٥.

(٥٧) محمد عمارة، جمال الدين الأفغانى موقظ ...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٥٨.

(٥٨) جرار، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٣.

(٥٩) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٤.

(٦٠) أكرم زعيتر، **القضية الفلسطينية**، ط١، القاهرة ،دار المعارف، ١٩٥٥، ص٤٩.

(٦١) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٤.

(٦٢) عمارة، جمال الدين الأفغانى موقظ ...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٣٥.

(٦٣) جرار، **مصدر سبق ذكره**، ص٩٦.

(٦٤) حمودة، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٧.

(٦٥) **المصدر نفسه** ، ص٤٧.

(٦٦) جرار، **مصدر سبق ذكره**، ص٩٦.

(٦٧) حمودة، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٧.

(٦٧) http://www.midadulqalam.info/midad/modules.php?name=News&file=article&sid=1049

(٦٩) حمودة، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٠.

(٧٠) **المصدر نفسه**، ص٦٣.

(٧١) جرار، **مصدر سبق ذكره**، ص٩٧،٩٨.

(٧٢) خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٨٥.

(٧٣) حمودة، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٩.

(٧٤) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠.

(٧٥) حمودة، **مصدر سبق ذكره** ، ص٥٠.

(٧٦) عبده، **مصدر سبق ذكره**، ص٨١.

(٧٧) الحوت، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٥.

(٧٨) زعيتر، القضية ...، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٩.

(٧٩) عبد الهادى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٢، ٣٣، ٣٧، ٣٩، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٧٠، ٧٩.